

## القاضي أبو بكر محمد بن يبي بن زرب

مهند دحام سالم

أشرف الاستاذ الدكتور / خالد مصطفى مرعب

### الملخص

القاضي أبو بكر محمد بن يبي بن زرب يهدف هذا البحث الى بيان شخصية القاضي محمد بن يبي بن زرب ، وتناول التعريف شخصيته وبرز صفاته وسيرته وحياته العلمية ، والشيوخ الذين اخذ العلم والفقه والقضاء منهم وعنهم ، وكذلك من تخرج وروى عنه الكتب والأحاديث والمسائل على مذهب الإمام مالك بن انس وشمل البحث الحديث عن كتب ومؤلفات ابن زرب بشكل يوضح معظم موضوعات وأبواب الكتب وعرض ابرز أبواب كتاب الخصال الذي جاء في حوالي ٦٠ باباً .وتضمن كذلك منهج ابن زرب في كتاب الخصال وكيفية الإفتاء في بعض القضايا والمسائل ، وعن علاقة كتاب الخصال بكتبه الأخرى التي تحمل عنوان الخصال ، وباقي كتب ومؤلفات ابن زرب في القضاء والفقه.واخيراً عالج البحث كيفية تولي ابن زرب منصب القضاء وعرض بعض القضايا الفقهية التي امتحن فيها ، وفي نهايته بيان لمواقف ابن زرب الفقهية والقضائية التي كان لها دور في تاريخ الاندلس في الفترة التي تولى فيها ابن زرب منصب القضاء والفتوى .

### Abstract

This research aims to clarify the personality of Judge Muhammad bin Iqabi bin Zerb, and the definition addressed his personality and the most prominent characteristics and his biography and his scientific life, and the elders who took knowledge and jurisprudence and the judiciary from them and them, as well as those who graduated and narrated books and hadiths and issues on the doctrine of Imam Malik bin Anas. The research included talking about the books and books of Ibn Zerb in a way that clarifies most topics and sections of books, and presented the most prominent sections of the book Al-Khasal, which came in about 60 chapters. It also included the method of Ibn Zarb in the book Al-Khasal and how to issue fatwas in some issues and issues, and about the relationship of the Book of Al-Khasal with his other books bearing the title of Al-Khasal, and the rest of the books and literature of Ibn Zarb in the judiciary and jurisprudence. Finally, the research dealt with Ibn Zerb's assumption of the position of the judiciary and presented some jurisprudence cases in which he was examined.

### اولاً : التعريف به

اسمه :- أبو بكر محمد بن يبي بن زرب بن يزيد بن مسلمة القرطبي (١).

حياته :- ولد في شهر رمضان سنة (٣١٩هـ / ٩٣٠م) (٢) كان ابوه احد قراء الخليفة الاموي عبد الرحمن الناصر (٣)، وهو احد صدور الفقهاء في زمانه، لقب لعلمه وورعه: بابن القاسم، وقال عنه القاضي ابو بكر محمد بن اسحاق بن السليم: لو راك عبد الرحمن ابن القاسم لعجب منك يا أبا بكر (٤). صفاته :- كان ابن زرب على علمه عاملاً مجتهداً ، ورعاً عفيفاً (٥) ، حليماً، محتسماً، صبوراً ، نفاعاً لمن علق بحبله ، جميل المنظر، حسن الصورة ، سهل الخلق ، طيب الرائحة ، نظيف اللبس والمركب والطعام والفاكهة ، ومن اخلاقه انه كان سمحاً صليماً في ذات الله ، لم يحفظ عنه انه قرع أحد بسوط مدة قضائه ، ولا تأخذه مع ذلك في الله لومة لائم (٦) ، ومن صفاته أنه كثير الصلاة وكثير التلاوة ، بالإضافة الى علمه بالمسائل ، بصيراً بالعربية والحساب ، حسن الحكاية والخطابة دقيق التقفه ، حافظ لأصول الاحكام ، حاذقاً بالفتوى منتبهاً في احكامه واليه كانت الخطبة والصلاة (٧) ، ومن صفاته في القضاء انه كان بعيداً عن الحيف في احكامه ، " وكانت فيه سلامة تجوز عليه بها بعض مالا يجوز على اهل اليقظة في قبول المدح مواجهة، واستحسان الاطراء عفا الله عنا وعنه، وكان كريم العناية ، وانتفع به جماعة من صحبه وترددوا عليه ، وتألوا به في دنياهم ، وهو من احدث الا بصحيفة رد فيها على محمد بن مسرة وقرأت عليه مرات ، واستسقى بنا سنة تسع وسبعين وثلاث مئة وسنة ثمانين فلم تكن خطبة في الا استسقى لخطبة في الجمعة " (٨). ومن ابرز ما عرف عنه انه لا يجلس للحكومة حتى يأكل ،

وكان موصوفاً بطيب الطعام ، له منه من الحلواء وظيفة معلومة<sup>(٩)</sup>. سيرته :- فقد عرف عنه عندما كان يخاطب الناس فوق المنابر فقد كان احسنهم ترتيباً لمنطقه ، وأظهرهم خشوعاً في موافقه اثناء خطبه . واقرعه لمن تقرعه بوعظه . ولا يمل احد من البكاء عند سماع محمد بن يبي بن زرب . "وذكر عنه ابن عفيف : يحقق قول الحسن البصري من ان الموعظة ، اذا خرجت من القلب ، وقعت في القلب ، واذا خرجت من اللسان ، لم تجاوز الاذان ، وكان في تصرفاته حازماً فطناً"<sup>(١٠)</sup> وقد قال عنه المشيخة انه عندما استلم زمام القضاء فقد امتنع خواص اصحابه المشاورين فقد جاءوا يباركون له ويهنئونه . فبلغ ابنه فكشف عن اموال عظيمه في صندوق له وقال " يا اصحابنا قد عرفتم ما امتحن به من تولى القضاء قديماً من سوء الظنة ، واخشى ان اطرق الناس على عرضي ، وهذا مالي ورزقي ، وفيه من العين كذا ، وفي مخازني ما بقي بقيمته ، وحظي من التجارة ما عرفتم ، فأفشا من مالي ما يناسب هذه الجملة ، فلا لوم ، وان تباعد ذلك ، فقد وجب مقتي ، فاسألوا الله تخليصي مما نشبت فيه ، فدعوا له<sup>(١١)</sup> ، ولما قام المنصور محمد بن ابي عامر ببناء مسجد الزاهرة ، فقد طلب المشورة من الفقهاء في التجميع فيه وافتي القاضي ابن زرب بمنع ذلك ووافقة الرأي ابن ذكوان وابن المكوي في جماعة وقام بمساعدة ابن العطار في التجميع فاستحيا خلاف ابن زرب ولم يجمع فيه حتى مات ، فجمع في ذلك الوقت<sup>(١٢)</sup> وكان لا يتكلم في الحكم اثناء فتره شهر رمضان لأنه كان يفرغ نفسه للعبادة والعمل ولم يزل ملتزماً على ذلك حتى وفاته<sup>(١٣)</sup>. اما عن حديثه مع المنصور بن ابي عامر والخليفة هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بالله فقد كان يكلم المنصور بن ابي عامر بغير التسديد على الرسم القديم ، قرأت مخاطباً له في كتاب ارتقاب الأهلة المرسوم للقضاء في شهر رمضان ، ومخرجه على العادة المعروفة للأعلام فيما يصح لديه من أمرها ، وكان حديثه للأمير هشام " أصلح الله أمير المؤمنين وابقاه وأيده بطاعته " ، ومخاطبه لحاجبه المنصور " يا سيدي ومن وفقه الله لطاعته وعصمه بتقواه"<sup>(١٤)</sup> .

#### ثانياً : شيوخ وتلاميذ القاضي ابي بكر محمد بن يبي بن زرب

سمع القاضي من عدد كبير من الشيوخ وعني برأيهم وتقدم فيه ومن شيوخه :

- أ- أبو عبدالله محمد بن احمد القرطبي المعروف بالؤلؤي الفقيه الأديب الشاعر الإمام الحافظ المشاور ، وكان من اهل الحدس الصادق والراي المصيب ، سمع من أبي صالح وقاضي قرطبة اسلم بن عبدالعزيز ، والفقيه المالكي ابن لبابه وجماعة ، وروى عنه ابن المكوي وغيرهم وتفق به القاضي ابن زرب ، توفي سنة (٣٥٠هـ/٩١٠م)<sup>(١٥)</sup>.
- ب- أبو محمد عبدالله بن ابي دليم القرطبي الامام المشاور ، العالم بالحديث الضابط لما رواه الفقيه ، روى عنه أسلم بن عبد العزيز وعمر بن حفص ، وابن ابي تمام ، والامام الحافظ قاسم بن اصبغ ، ومحمد بن الحارث الخشني ، والف كتاب الطبقات فيمن روى عن الامام مالك وابنائهم من اهل الامصار توفي سنة (٣٥١هـ/٩١١م)<sup>(١٦)</sup>.
- ت- أبو إبراهيم إسحاق بن مسرة التحيبي القرطبي الامام الفقيه الحافظ العالم ، تفقه بابن لبابه ، واسلم بن عبدالعزيز ، واحمد بن خالد ، ومحمد بن قاسم ، وقاسم بن اصبغ وجماعة ، وسمع من عثمان بن يونس ، ووهب بن عيسى ، وابن ابي تمام ، وعنه ابن ابي زنين وابن يبي ، وأبو بكر المعيطي وابن المكوي ، والقاضي ابو محمد الأصلي صاحب كتاب الدلائل وجماعة ، ألف كتاب النصائح المشهورة وكتاب معالم الطهارة والصلاة ، توفي سنة (٣٥٢هـ/٩١٢م)<sup>(١٧)</sup>.
- ث- أبو محمد قاسم بن اصبغ القرطبي ، الامام الفقيه المحدث المشاور الثبت الأمين العمدة ، سمع من أخيه وبقي بن مخلد بن يزيد صاحب كتاب التفسير ، ومحمد الخشني وابن مسرة ، وعلي بن عبدالعزيز القاضي الجرمان ، والفقيه المفتي اصبغ بن خليل ، ومحمد بن إسماعيل الترمذي ، وعبدالله بن احمد بن حنبل ، وابو عبدالله محمد بن وضاح وجماعة من اهل المشرق والمغرب ، واخذ عنه ابن ذكوان ومنذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة في قرطبة ، وله عدة مؤلفات ومصنفات منها: مخرج سنن ابي داود ، واختصاره المسمى بالمجتبي ، وغريب حديث مالك ، ومسند حديث مالك وكتاب احكام القران ، وكتاب الناسخ والمنسوخ<sup>(١٨)</sup> .

#### ثالثاً : تلاميذ القاضي محمد بن يبي بن زرب

شاعت السمعة الحسنة الطيبة في المجال العلمي ، وعرفت قيمته في مجال الرواية والسماع ، فتوافد عليه الطلبة للأخذ عنه وجاء إليه المهتمون بفقهاء القضاء والنوازل وأشار المترجمون الى الكثير من تلاميذه من اهل قرطبة وغيرهم .

- ١- روى عنه القاضي أبو الوليد يونس بن عبدالله بن مغيث المعروف بأبن الصفار القرطبي<sup>(١٩)</sup> ، وهو الامام العالم الصالح الفقيه الحافظ ، وألف كتاب الموعب في تفسير الموطأ ، وجمع مسائل ابن زرب ، وكتاب الابتهاج لمحبة الله تعالى ، وكتاب التهجد ، وفوائد الأنصار ، وكتاب التفسير وغير ذلك مما هو كثير في كتب التصوف توفي سنة (٤٢٩هـ/١٠٤٠م)<sup>(٢٠)</sup> .

٢- ابن دحون أبو محمد عبدالله بن يحيى بن دحون من شيوخ الإفتاء بقرطبة تفقه على يد ابن المكوي وابن زرب قال عنه ابن حيان " لم يكن في أصحاب ابن المكوي افقه منه ، ولا اعرض على الفتيا ، ولا اضبط للروايات مع نصيب من الادب " توفي سنة (٤٣١هـ / ١٠٤٢م) (٢١) .

٣- القاضي أبو عبدالله محمد بن يحيى بن احمد بن محمد الحذاء التميمي الامام الفقيه المحدث الحافظ المشاور الاديب البليغ الخطيب لقي جماعة من الشيوخ واخذ عنهم ، ومنهم ابن زرب وابن السليم وابن القوطية صاحب كتاب تاريخ أفتتاح الاندلس ، ارتفعت مكانته ودرجته وألف كتاب الاستنباط لمعاني السنن والاحكام من احاديث الموطأ في ثمانون جزء ، وكتاب التعريف برجال الموطأ في أربعة اسفار ، وكتاب البشرى في عبارة الرؤيا شرح به كتاب الكرمانى ، وكتاب الخطب والخطباء في سفرين توفي سنة (٤١٦هـ / ١٠٢٥م) (٢٢) .

٤- أبو بكر عبدالرحمن بن احمد بن حويبل: وهو فقيه روى عن محمد بن الحارث بن الخشي وابن زرب وروى عنه أبو عمر بن عبد البر (٢٣) .

#### رابعاً : مؤلفات ابن زرب

١- كتاب الخصال المشهور في الفقه على مذهب الامام مالك (٢٤) وعارض به كتاب الخصال للنعمان بن ثابت بن كاوس الحنفي ( ابو حنيفة) ، فجاها غاية في الاتقان ، ويعتبر كتاب الخصال من ابرز الكتب مضامين الخصال وهي معبرة عن خصال صاحبها العلمية واحقيته بالنعوت السننية التي بوأته المكانة العلية في حفظ فقه المذهب والذود عنه حتى لقب ابن القاسم .

وجاءت أبواب كتاب الخصال وتراجمه مدونة جامعة لفروع مذهب الامام مالك ومستقصيه لا قولة ورواياته ، فلم يكتف القاضي بنقل المحفوظ واختصار المبسوط وانما سلك فيه مبدأ رد الفروع الجزئية الى تراجمها الفقهية وعمل على حصر ما تناثر من تلك الفروع في أصول عديدة الشيء الامر الذي جعل كتاب الخصال له مكانه الحضور في مؤلفات السادة المالكية (٢٥) وتحت كتاب الخصال في بدايته عن معنى الخصال ومفهومها، مما أدى الى تنوع دلالات كلمة الخصال وجاء استعمال كلمة الخصال في الكتب الفقهية في عدد من الكتب منها :-

أ- كتاب الوصايا ثلاث خصال .

ب- كتاب القضاء ومنه ست خصال .

ت- كتاب العارية وفيه خصلتان .

ث- كتاب الشركة وتتضمن خصلتان (٢٦) اما عن موضوعات كتاب الخصال : فهي تعود الى الفترة التي ألف فيها كتاب الخصال وتعتبر مرحلة فاصلة بين عهد الأمهات والمطلوبات والشروح والتقييدات ، لذا جاز ان تتعت طبقة ابن زرب بخاتمة المتقدمين ، لانهم كانوا ينقلون عن مالك بالواسطتين والثلاثة ، وعمل ابن زرب على إعادة كتابته من اجل ترتيب بديع اسفر عن تأليفه في كتاب الخصال الذي ضم مختلف الأبواب الفقهية كما في مصادرها الاصلية (٢٧) وفيما يلي عرض لموضوعات كتاب الخصال كما وردت من تراجمها الكلية المنتظمة في كتبها الفقهية وهو لا يقف عند الابواب الفرعية لانها في الكتاب من قبيل المسائل الجزئية ، وبلغ مجموعها في كتاب ابن زرب حوالي ستين كتاباً فقهيّاً ، وهي كتاب الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والاعتكاف ، والجهاد ، والجنائز ، والضحايا ، والذبائح ، والصيد ، والايمان ، والندور ، والاشربة ، الاجازة ، الروامل والدواب ، وكراء الدور ، والسلم ، والنكاح ، والطلاق ، والتخيير ، والتملك ، وارضاء الستور ، والظهار ، واللعان ، والرضاع ، والمواريث ، والعق ، والتدبير ، والمكاتبة ، وأمهات الأولاد ، والولاء ، والوصايا ، والقضاء ، والشهادات ، والحبس ، والهبة ، والصدقة ، والعارية ، والوديعة ، والعرايا ، والدهون ، والشركة ، والقراض ، والوكالات ، والاستحقاق ، والقسمة ، والشفعة ، والصلح ، والمديان ، والتقليس ، وتضمين الصناع واللقطة ، والجوانح ، والمزارعة ، والمغارسة ، والغصب والسرقه ، والمحاربيين ، والحدود ، والديات ، وكان يعمل في بعض الأحيان على تجزئة الكتب خاصة في مسائل الصيد والاشربة والوديعة والدهون والمزارعة والمغارسة وغيرها ، وفي بعض الكتب اكتفى باب واحد مثل كتاب التملك والصلح والجوانح وارضاء الستور وضمن بعض الكتب ابواباً ليس منها ، كما في كتاب السلم الذي ادخل فيه أبواب البيوع الفاسدة ، والصدق والخيار ، والكفالة ، والحوالة ، المرابحة ، والمساقاة ، ولعل ذلك يرجع الى طبيعة التحديث وظروف النقل والرواية بالإضافة الى ما اعترى ذلك في تناول النصب (٢٨) .

• **منهج ابن زرب في كتاب الخصال** :- وعمل القاضي على عرض مادته الفقهية كما هو مقرر في أمهات كتب المذهب واعتبرت المدونة الكبرى للامام مالك بن انس ، احسن ما تجسدت به في العرض وكانت طبيعة كتاب الخصال تقتضي التيسر ، والاختصار في التحرير ،

واسس القاضي عرضه على تدقيقات إجرائية على اختبارات حسابية فكانت العلاقة بين الاعداد ومعدوداتها، مؤذنه بجمع المفترق وتجنيس المؤلف مما يسهل على القارئ الوقوف على الفروع الفقهية، ويردها الى تراجمها العددية كقوله مثل :-

- أ- الخصال التي لا تقطع الصلاة تسع .
- ب- وصلاة الجمعة خصالها ثلاثة .
- ت- اللباس المكروه في الصلاة خمس وعشرون .
- ث- والخطب سبعة " الجمعة والعيان، والاستسقاء، وثلاثة منها في الموسم منها قبل التوبة بيوم واحد بعد الظهر، وفي يوم عرفة (٢٩) .
- اثان قبل الظهر، بينهما جلسة ، وبعد النحر بيوم : خطبة واحدة بعد الظهر " .
- ج- كتاب الزكاة ثلاث خصال .
- ح- باب الكفالة اربع خصال .وتعتبر الخصال من المؤلفات الجامعة لفروع المذهب والخادمة لحفظه وتيسيره ، فان ذلك انعكس على طريقة عرضه اذا لم يظهر منه ما يصور المنهاج في ترتيب قضايا الحجاج، لأنه مجموع قدم الاصاله للمؤلف ، فجاء عارياً عن اعتراضات المخالف ، ومع ذلك فأن القاضي لم يترك موضع دون وضع صور للاستدلال ، وما يتبعها من التنصيص على ضروب التعليل ، والتنبية على مواطن التدليل ، وهو الدليل على صحة الحكم في بعض المسائل والقضايا (٣٠) .

• **منهج ابن زرب في الاستدلال :** ويتعلق بطريقة العرض والعمل على رد الفروع الى أصولها ثم الوقوف على أوجه الاستدلال . ومن الأمثلة على ذلك :-

أ- الاستدلال على بعض القضايا بما ثبت من الأدلة النقلية ومنها ما ورد في مسألة الوضوء وقال عنه بوجوب وجود اربع خصال من خلال الاستدلال بقوله تعالى : "يا أيها الذين امنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق ، وامسحوا برؤوسكم وارجلكم الى الكعبين" (٣١) وقال في منع بيع الغرر من القرآن قوله تعالى " يسألونك عن الخمر والميسر" (٣٢) ، فالميسر هو الغرر، والقمار، والمخاطرة وكل غرر في الدنيا (٣٣) وقال في موضوع منع الضرر: قال النبي صلى الله عليه وسلم " لا ضرر ولا ضرار " ونهى ايضاً عن إضاعة المال، وقال في زكاة الفطر " وهي فريضة فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم " (٣٤) .

ب- الاستدلال في بعض القضايا الفقهية بما ثبت لديه من صور الاجتهاد ، وجاء في كتاب الخصال الحكم خصلتان ، ما في كتاب الله عز وجل واحكمته السنة فذلك الحكم الواجب ، والحكم الذي يجتهد فيه برأيه فذلك الذي لعله يوافق (٣٥) وجاء في موضوع الاجتهاد والمرفق بالدليل فيما حكا عن مالك " ويحتج في ذلك بقوله عز وجل " مما قل منه وكثر نصيباً مفروضاً " واحتج عليه من خالفه بذلك في معنى قوله عز وجل بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم " لا ضرر ولا ضرار " فمن الضرر ان يقسم بينهم ما لا ينتفع به واحد منهم: وغيرها من القضايا التي كان يعطي بها الحكم على سبيل الاجتهاد والقياس على بعض الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية (٣٦)

• علاقة كتاب ابن زرب بباقي كتب الخصال : أورد المهتمون بالتراجم والمؤلفات والطبقات كتب بعنوان الخصال جاءت مواضعها في الفقه والحديث والعقائد ومنها :-

- أ- كتاب الاعتقاد لمحمد بن فضل البلخي الحنفي(٤١٩هـ/١٠٢٠م) والمعروف باسم كتاب في عقائد اهل السنة (٣٧) .
- ب- كتاب الخصال المكفرة للذنوب المقدمة والمؤخرة لأبن حجر العسقلاني ( ٥٨٢هـ / ١٢٠٢م) (٣٨) .
- ت- كتاب الأقسام والخصال لابي بكر احمد بن عمر بن يوسف الخفاف الشافعي المتوفى في القرن الرابع الهجري، وهو عبارة عن مجلد متوسط، ذكر في بدايته أصول الفقه وسماه بالأقسام والخصال ولو سماه البيان لكان افضل، لأنه يترجم الباب بقوله البيان عن موضوع كذا (٣٩)

وتتضح علاقة كتاب ابن زرب بالكتب الأخرى في موضوع الخصال من خلال قول صاحب كتاب ترتيب المدارك " الف كتاب الخصال المشهور في الفقه على مذهب الامام مالك ، عارض به كتاب الخصال لابن كاوس الحنفي، فجاء غاية في الإقتان " (٤٠) وبهذا يمكن اعتبار سبب المعارضة هو احد أسباب تأليف الخصال، ولا يمكن ان يستطيع احد اخراج المعارض في الصورة التي وضعها ابن زرب الا ان يكون مؤهل لتلك المعارضة وتوضيحها بصورة مرتبه ومنهج واضح بديع، كما قال وجاء غاية في الإقتان .

٢- **كتاب الرد على ابن مسره (٤١) :-** والذي عمل فيه بالكشف عن أصحاب ابن مسرة واتباعه واستنابة من علم او انتفع بمذاهبهم ، وقد ظهر هذا الكتاب للناس بشكل حسن علمي في الرد على ابن مسرة ، وقرئ عليه واخذ عنه سنة (٣٥٠هـ / ٩٠٩م) وتضمن الكتاب استدعاء

جملة من اتباع ابن مسرة وكيفية اخراجهم من جانب الجامع الشرقي في قرطبة، والعمل على احراق ما في أيديهم من كتب عن ابن مسرة واوضاعه وهم ينظرون اليه في سائر الحاضرين في موضوع الكتاب (٤٢) .

٣- يذكر كتاب شجرة النور الزكية في طبقات علماء المالكية ان لابن زرب كتاب ثالث تصح نسبه اليه مجموع من طرف بعض تلاميذه في المسائل الفقهية في ترجمة القاضي أبو الوليد يونس بن محمد بن مغيث " الف كتاب الموعب في تفسير الموطأ وجمع مسائل ابن زرب " الا ان هذا الكتاب لم يصل الينا (٤٣) .

#### خامساً : ابن زرب القاضي

من المعروف والشائع عن قبول منصب القضاء وهو الامر الذي نقل عن المتقدمين ان ابن زرب اثر الاعتذار او الاعتراض، وذكر النباهي عن اخبار المنصور بن ابي عامر قال " فمضت الأيام والليالي وولي ابن ابي عامر الخطط الى ان صار له ملك الاندلس كله بخلافة المؤيد بالله واستولى على الامر والنهي به، وذلك الرجل رفيقه وصاحبه يتوقع ان يتذكر المنصور بن ابي عامر لاحترامه في تلك الليلة ، فما كان في بعض الليالي، مات القاضي ابن السليم ليلاً ، وكان لمحمد بن ابي عامر في أيامه عيون بالليل والنهار، ولا يقع امر من الأمور حتى يعلم به ، فأخبر بأبن السليم ساعة موته في الليل، فبعث في ذلك الرجل رفيقه في تلك الساعة، فلما وصل اليه رسوله ، تداخله شيء من الفزع ، فحشي على نفسه ، فقام اليه واكفانه معه ، فقال له : يا هذا قد مات القاضي ابن السليم . قال : فزاد فزع الرجل، ثم قال من ترى ان يولى القضاء قال له الذي رأيناه تلك الليلة ، محمد بن يبقى بن زرب ، فقال له المنصور : فانهض اليه ، واقرأه سلامي وبشره بالقضاء واخبره بكل ما دار بي معك في تلك الليلة، حرفاً بحرف لا تتقصه شيئاً، ولا توجد عذراً ان اعتذر وسكن روع الرجل وقام الى ابن زرب القرطبي ، فقدم اليه الاعتذار الا انه لم يقبل له عذراً وتكلم له ما جرى له مع المنصور قديماً قبل بالقضاء وتقدم له (٤٤) وادى قبول ابن زرب لما عرض عليه ، حسب الترتيب انتقاد العوام عندما علم من أمر المنصور وسيرته في منصبه وذكر النباهي ان القاضي ابن زرب امتحن بالرغم من فضله مع عوام الناس بقرطبة من باب انبطائهم للسقي، فدعا بهم في المحل الذي توالى عليهم بأعظم ما أمحن به قاض قبله ، وذلك انه برز بهم عشرة مرة : حضر معهم المنصور بن ابي عامر استسقاء واحداً وهو يلبس ثياب بيض على رأسه اخرق وشيء اغبر، على شكل اهل المصائب في الاندلس قديماً ، قد ابدى الخشوع وهو باك، ودموعه تسيل على لحيته ، فتقدم الى جناح المحراب عن يمين الامام ، وقد كان فرش له هناك حصير ليصلي عليه فدفعه برجله وامر بنزعه ، وجلس على الأرض ، وشهد الاستسقاء، فلم تم ، امر القاضي بتفريق صدقات كثيرة من مال او طعام عن خليفته وعن نفسه ولهجت العامة بدم القاضي واستبطاء الرحمة بوسيلته ، واطلقوا السننهم بالطعن في دينه ، وصفه بالركون الى ابن ابي عامر، وعابوه بالقبول لهداياه والاستساغة لعطيته ، فلما تكرر بالاستسقاء وابطاء الغيث، هاجت العامة في بعض بروزه الى الربض ، وثاروا واجتمعوا اليه بعد إتمام الصلاة يطعمون ويقولون له، بئس الوسيلة أنت الى الله تعالى، والشفيع في ارسال الرحمة ، اذ أصبحت امام الدين وقيم الشريعة ، ثم لا تتورع عن قبول ما يرسل به اليك من الهدية التي لا تليق الا بالجبايرة وأبدوا في ذلك، واعادوا وهموا ان يبسطوا اليه أيديهم ويتهموه حتى لاذ منهم بالتربة في مقبرة الربض واغلق أبوابها عليه ، واحتصن بها، واستجد بصاحب المدينة الذي ارسل اليه الفرسان وتم تفريق العامة وعاد الى داره سالماً وعندما عاود الاستسقاء ارسل اليه المنصور خيلاً كثيرة أحاطت به عند تكامل الناس قبل الصلاة ، فلم يجروا احد من السفهاء على النطق بكلمة (٤٥) فكان هذا امتحان قوي للقاضي ابن زرب ، وهو يوضح عدم رضى عامة الناس عن المنصور بن ابي عامر وغيره فمن يتولى أي منصب. لكن ما عيب عليه من الركون الى المنصور لا يقدح في اهليته للمنصب فقد كان ابن ابي عامر يعظمه ويتحرك اليه اذا اتاه ويجلسه على فراشه، ولم يقبل له ابن زرب يداً قط ولما مات اظهر المنصور ابن أبي عامر لموته غماً شديداً وكتب الى ورثته كتاب حفظ، وانتفعوا به واستدعى ابنه محمد وهو ابن ثلاثة اعوام ووصله بثلاثة الاف دينار (٤٦) وكان القاضي ابن زرب مرجعاً في القضاء قبل ان يتولى المنصب فقد ارسل اليه القاضي ابن السليم " في رجل من اهل الثغر، بيده فرس مرسوم في فخذة " حبس لله تعالى " رفع الى القاضي، فسأل عن وجه تملكه للفرس، فقال: شريته من بلاد البربر، فوسمته هذا الوسم، فكتب اليه القاضي ابن زرب ان لم يعرف ملكه للفرس من قبل هذه الوسمة، فأقامت بينه بما ادعاه فخل بينه وبينه، ان لم تقم بينه بما ادعاه، في سبيل الله على ما ظهر ما اسمه، ولا يصدق المعتدي في هذا الا ببينة (٤٧) وكان للقاضي ابن زرب الكثير من الاقوال في أبواب القضاء ففي احكام الوكالة : اذا وقع التوكيل عند حاكم صرح الموكل في التوكيل باسم الحاكم ان لم يكن التكلم عند حاكم غيره ، وان كان التوكيل مجملاً ، فله ان يخاصمه حيث شاء (٤٨) وقد شهد لابن زرب كل من ترجم وتحدث عنه بطول باعه وقوة عارضته ، في مجال القضاء مما اهله ان يكون قاضياً مبرزاً للحضرة القرطبية وكان لابن زرب تضلع ومعرفة في المادة الفقهية وحفظه لفروع المالكية ، وحقه في منصب الفتوى والقضاء، وقد كان بعض القضاة يرجعون اليه في الكثير من الاحكام خاصة بعد ان يسر له أ مر الانخراط

به : وعرف عن طول باعه، وقوة عارضته ، فيا يسر له من امر ، فكان الخصال بهذا الاعتبار جامعاً لفقهِ المالكية، ومرجعاً لاجتهاداته القضائية، اذ كان رحمه الله عليه يبسط احكام المنازعات على حسب ما تستوجب الخطة القضائية ، في قضايا الوثائق والشروط والبيانات وما يعرض لها من الاحوال والهيئات (٤٩) .

سادساً : ابن زرب الفقيه

ذكر أصحاب كتب التراجم والطبقات ان ابن زرب كان يلقب ابن القاسم ، ونقلوا ان القاضي ابن السليم، كان بقوله : لو رأك ابن القاسم لعجب منك يا أبا بكر، وكان الاندلسيين يرجعون في الفتوى والفقهِ الى موطأ الامام مالك، وفي القضاء الى اقوال ابن القاسم (٥٠) ، وكان الولاية في قرطبة يشترطون على القاضي في سجله لا يخرج عن قول ابن القاسم ما وجد (٥١) .

وكان من شروط تولي القضاء ان يكون القاضي متطلعاً في علم الفقهِ فقد تحقق هذا الشرط في ابن زرب من ظاهر سيرته وعلمه الذي ناله في درجة الاجتهاد ، وتتسب اليه مسائل تفرد بها في المنقول عن المالكية (٥٢) .

سابعاً : ابرز مواقف ابن زرب

أ- **عدم تنفيذ رغبات السلطة اذا كانت قائمة على الخطأ** يسجل التاريخ مجموعة كبيرة من الفقهاء الاندلسيين ينفذوا رغبات السلطة دون أي معارضة، وعملوا على رفضها اذا كانت تتعارض مع مبادئ وقيم الدين الإسلامي ومنها رفض ابن زرب ان يكون وسيلة للمنصور بن ابي عامر لتحقيق بعض الأهداف السياسية ذلك عندما أراد المنصور اقصاء الخليفة المؤيد هشام المؤيد من السلطة جمع للمشورة قوماً من خواصه منهم ابن عياش وابن فطيس ومن الفقهاء محمد بن يبي بن زرب ، وأبو عمر احمد بن عبدالملك الاشبيلي المعروف ابن المكوي وعبدالله بن إبراهيم بن محمد الأصلي قاضي سرقسطة وقد وافق كل من ابن عياش وابن فطيس اما محمد بن يبي بن زرب قال له : وصاحب الامر ما شأنه ؟ فقال له : لا يصلح لهذا، فقال له يرى ويجرب فقال له: افي مسألة الفقهِ تريد ان تسأله؟ قال: لا ولكن في مسائل السياسة وتدبير المملكة قال: فان لم يقم، قال: ينظر في قریش، فاعرض عنه ونظر الى الأصلي وابن المكوي، فقال له الأصلي عربي ضابط خير من قرشي مضيع، ونظر الى ابن المكوي فجعل يضحك له ويقول : يا مولاي ومثلك بفكر في هذا وانت الكل وكل شيء بيدك وانما يرغب في الأسماء ما لا يحقق، والمدار على الحقيقة وهي بيدك فسكت ابن ابي عامر، وقاموا واحداً واحداً ، فلما قام القاضي وسلم عليه قال: اخرجوا من بين يدي الفقهِ فعظم ذلك على ابن زرب وقال : "لا بأس هذا ما تقدرون على عزلنا عنه" ، وقام الى منزله ومات بعدها بأيام يسيره (٥٣) .

ب- **الرد على المخالفين وتفنيد آرائهم:** اجتمع ابن زرب مع مجموعة من الفقهاء المالكية الاندلسيين للرد على محمد بن عبدالله بن مسره الذي كان يقول بالاستطاعة وانفاذ الوعيد ومن الفقهاء الذين كتبوا للرد على ابن مسرة قاضي الجماعة محمد بن يبي بن زرب حيث اظهر للناس كتاباً حسناً وصفه في الرد على اراء ابن مسرة وقرئ عليه واخذ عنه (٥٤) .

ثامناً : وفاته

توفي رحمه الله عليه ليلة الاحد لاثنتي عشر ليله خلت من شهر رمضان سنة احدى وثمانين وثلاث مئة وعمره بذلك حوالي احدى وستون عاماً ودفن يوم الاحد بعد صلاة العصر في مقبرة قریش وصلى عليه احمد بن عبدالله بن ذكوان (٥٥) وبعد موته تقافده الناس واثنوا عليه حسناً ، واطهر المنصور بن ابي عامر لموته حزناً وعمماً شديداً وكتب الى وريثه كتاب حفظ انتفعوا به ، وتقدهم في حياته واستدعى ابنه وهو طفل ابن ثلاثة أعوام فوصله بثلاثة الاف دينار والطاف قيمتها الف دينار (٥٦) ، وليس ذلك من أفعال المنصور فقد كان من حسن معاملته للناس، والوفاء لهم بمنزله لا توصف ، حتى قيل انه لن يأتي الزمان بمثله ولا ظفرت الايدي بشكله (٥٧) وقال عنه القاضي عمر بن محمد رأيت محمد بن يبي بن زرب بعد وفاته فقال ما وجدت شيئاً اضر من الاختلاف الى أبواب الملوك وقال المقرئ الباغاني سألته في النوم فقال ما وجدت شيئاً انفع من قراءة القران ، وكانت مدة ولايته في القضاء أربعة عشر عاماً (٥٨) .

**الخاتمة :**

توصل هذا البحث عن القاضي محمد بن يبي بن زرب مدى قوة شخصية القاضي وتأثيره على عامة الناس، وقيمه ومكانته العلمية عند الحاكم والعلماء والفقهاء. ووضح البحث في ثناياه حكم الكثير من القضايا والمسائل التي يتعرض لها القاضي من مسائل فقهية ودينية تستوجب إصدار حكم شرعي بناء على احد الأدلة من القران الكريم والسنة النبوية واجتهادات القاضي. وبالرغم من كل ما جاء في البحث من معلومات عن القاضي الا انها لم تصل الى حد استقصاء كل المصادر والمراجع عن شخصية القاضي ابن زرب وعلمه واجتهاده ودوره في المجتمع وتأثيره عليه.

**هوامش البحث**

- ١- ابن الفرضي عبد الله بن محمد (٤٠٣هـ/١٠١٣م)، تاريخ علماء الاندلس، الطبعة الاولى، الدار المصرية ، القاهرة . ٢٠١٣م، ج٢، ص٧٧٥ - ٧٧٦ . محمد بن يبقى بن زرب ، كتاب الخصال ، تحقيق عبدالحميد العلمي، منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية بالمغرب ، ٢٠٠٥م، ص٣ . النباهي ، أبو الحسن عبدالله بن الحسن النباهي المالقي الاندلسي، كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق لجنة احياء التراث العربي ، دار الافاق الجديدة ، بيروت ، ص٥٨ . الحميدي ، ابو عبدالله بن ابي نصر محمد بن فتوح بن عبدالله بن فتوح بن حميد الازدي الميورقي (٤٨٨هـ / ١٠٩٠م) ، جذوه المقتبس في تاريخ علماء الاندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية، القسم الأول ص١٦٢ . القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب مالك، تحقيق سعيد احمد اعراب ، ١٩٨٢م، الجزء السابع، ص١١٤ . القرطبي ابو عبد الله محمد بن الحارث بن اسد الخشني القروي، قضاة قرطبة، تحقيق ابراهيم الأبياري، المكتبة الاندلسية ، ١٩٨٩م ، ص٢٨٤ . الذهبي، شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز" (٣٤٧هـ/١٣٤٧م) سير اعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، وابراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت. ١٩٨٣م، ج٦، ص٤١١م. حميد لحر، فتاوى القاضي ابن زرب القرطبي ، دار اللطائف ، فاس، ص٤٢ . حسين دويدار، المجتمع الاندلسي في العصر الاموي ، الطبعة الاولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت . ٢٠٠٢م ، ص١٥٤ .
- ٢- محمد بن يبقى بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص٤؛ القرطبي، قضاة قرطبة ، المرجع السابق ، ص٢٨٤ .
- ٣- محمد بن يبقى بن زرب، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص٥؛ القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، المرجع السابق ، ج٧ ، ص١١٤ .
- ٤- محمد بن يبقى بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص٥ ؛ حميد لحر، فتاوى القاضي ابن زرب ، المرجع السابق ، ص٤٢ ؛ ابن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس ، المصدر السابق ، ص٩٧ .
- ٥- القاضي عياض ، ترتيب المدارك، المرجع السابق ، ج٧ ، ص١١٥ .
- ٦- النباهي ، تاريخ قضاة الاندلس ، المصدر السابق ، ص٧٨ .
- ٧- القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، المرجع السابق ، ج٧ ، ص١١٥ ؛ ابن القرطبي ، تاريخ علماء الاندلس ، ص٩٦ ، ٩٧ .
- ٨- ابن القرطبي ، تاريخ علماء الاندلس ، المصدر السابق ، ص٩٧ .
- ٩- محمد بن يبقى بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص٦ .
- ١٠- النباهي ، تاريخ قضاة الاندلس ، المصدر السابق ، ص٧٧ .
- ١١- القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، المرجع السابق ، ج٧ ، ص١١٦ ؛ النباهي ، تاريخ قضاة الاندلس ، المصدر السابق ، ص٧٧ .
- حميد لحر، فتاوى القاضي ابن زرب ، المرجع السابق ، ص٤٤ ، ٤٥ ؛ الزركلي ، خير الدين محمود ، الاعلام ، دار العلم للملايين ، الطبعة ١٥، بيروت . ٢٠٠٢م ، ج٤ ، ص١٢٠ .
- ١٢- القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، المرجع السابق ، ج٧ ص١١٧ ، ١١٨ ؛ النباهي ، تاريخ قضاة الاندلس ، المصدر السابق ، ص٧٧ ؛ حميد لحر، فتاوى القاضي ابن زرب ، المرجع السابق ، ص٤٥ - ٤٦ .
- ١٣- النباهي ، تاريخ قضاة الاندلس ، المرجع السابق ، ص٧٨ .
- ١٤- النباهي ، تاريخ قضاة الاندلس ، المرجع السابق ، ص٧٨ .
- ١٥- حميد لحر ، فتاوى القاضي ابن زرب ، المرجع السابق ، ص٥٠ .
- ١٦- حميد لحر، فتاوى القاضي ابن زرب ، المرجع السابق ، ص٥٠ .
- ١٧- حميد لحر، فتاوى القاضي ابن زرب ، المرجع السابق ، ص٥١ .
- ١٨- حميد لحر ، فتاوى القاضي ابن زرب ، المرجع السابق ، ص٥٠ .
- ١٩- الحميدي ، جذوه المقتبس ، المصدر السابق ، ص١٦٢ .
- ٢٠- حميد لحر، فتاوى القاضي ابن زرب ، ص٥٠ .
- ٢١- حميد لحر، فتاوى القاضي ابن زرب ، ص٥٢ ، ٥٣ .
- ٢٢- القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج٧، المرجع السابق ، ص٢٩٦ .

- ٢٣- محمد بن محمد بن عمر قاسم مخلوف ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق عبدالحميد خيالي ، دار الكتب العملية ، بيروت . ٢٠٠٣ م ، ص ١١٢ .
- ٢٤- الحميدي ، جذوة المقتبس، المصدر السابق ، القسم الثاني، ص ٣١٢ .
- ٢٥- القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، المرجع السابق ، ج٧ ، ص ١١٥ .
- ٢٦- محمد بن يبي بن زرب، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص ٨ ؛ حميد لحر، فتاوى القاضي ابن زرب ، المرجع السابق ، ص ٤٣ .
- ٢٧- محمد بن يبي بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص ٩ .
- ٢٨- محمد بن يبي بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص ١١ - ١٢ .
- ٢٩- محمد بن يبي بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص ١٢ .
- ٣٠- محمد بن يبي بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص ١٢ .
- ٣١- محمد بن يبي بن زرب، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص ١٣ .
- ٣٢- سورة المائدة ، الآية ٦٠ .
- ٣٣- سورة البقرة ، الآية ٢١٩ .
- ٣٤- محمد بن يبي بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص ١٤ .
- ٣٥- محمد بن يبي بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص ١٤ .
- ٣٦- محمد بن يبي بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص ١٤ .
- ٣٧- سورة النساء ، الآية رقم ٧ .
- ٣٨- محمد بن يبي بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص ١٥ .
- ٣٩- حاجي خليفة ، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، طبعة بولاق، تحقيق غوستاف فلوجل، لندن . ١٨٣٥ م ، ج٢ ، ص ١٣٩٣ .
- ٤٠- حاجي خليفة ، كشف الظنون ، المرجع السابق ، ج١ ، ص ٧٠٥ .
- ٤١- تاج الدين ، أبو نصر تاج الدين بن عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ، طبقات الشافعية ، تحقيق محمد حمد الطناضي ، عبدالفتاح محمد الحلو ، دار هجر للطباعة والنشر، ٢٠١٠م ، ج٢ ، ص ١٢٤ .
- ٤٢- القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، المرجع السابق ، ج٧ ، ص ١١٥ ؛ محمد كامل عويضة ، محمد بن مسرة ، دار الكتب العلمية ، بيروت . ٢٠٠١م ، الطبعة الاولى ، ص ٣٥ .
- ٤٣- القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج٧ ، المرجع السابق ، ص ١١٥ .
- ٤٤- محمد بن يبي بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص ٣ ، ٤ ؛ النباهي . تاريخ قضاة الاندلس ، المصدر السابق ، ص ٧٨ .
- ٤٥- محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات علماء المالكية. تحقيق عبدالغني مسنو، جمال احمد حسن، المكتبة العصرية ، بيروت ، ص ١١٣ .
- ٤٦- النباهي ، تاريخ قضاة الاندلس ، المصدر السابق ، ص ٨٠ - ٨١ ؛ محمد بن يبي بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص ٤ - ٥ .
- ٤٧- محمد بن يبي بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص ٥ .
- ٤٨- محمد بن يبي بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص ٦ .
- ٤٩- محمد بن يبي بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص ٢٢ .
- ٥٠- محمد بن يبي بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص ٧ ؛ احمد شلبي ، المدخل الى تعريف الفقه الاسلامي، دار النهضة، الطبعة الاولى ، بيروت . ٢٠٠٩م ، ص ٤٥ .
- ٥١- محمد بن يبي بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص ٧ ؛ محمد ابو زهرة ، تاريخ المذاهب الاسلامية ، دار الفكر، ط١ ، بيروت . ١٩٩٨م ، ص ٥٦ .

- ٥٢- محمد بن يبيى بن زرب ، كتاب الخصال ، المرجع السابق ، ص ٧ .
- ٥٣- ابن حزم ، علي بن احمد بن سعيد بن حزم القرطبي ، رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء ، تحقيق احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ٨٦ - ٨٧ ؛ حميد لحمري . فتاوى القاضي ابن زرب ، المرجع السابق ، ص ٤٦ - ٤٧ .
- ٥٤- النباهي ، تاريخ قضاة الاندلس ، المصدر السابق ، ص ٧٨ ؛ حميد لحمري ، فتاوى القاضي ابن زرب ، المرجع السابق ، ص ٤٧ - ٤٨
- ٥٥- ابن القرطبي ، تاريخ علماء الاندلس ، المصدر السابق ، ص ٩٧ ؛ ابن فرجون ، ابراهيم بن علي بن محمد اليعمري المالكي ، الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب ، دار التراث العربي ، القاهرة . ٢٠٠٩م ، ج١ ، ص ٢٦٨ .
- ٥٦- القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، المرجع السابق ، ج٧ ، ص ١١٨ ؛ النباهي ، تاريخ قضاة الاندلس ، المصدر السابق ، ص ٨٠ .
- ٥٧- النباهي ، تاريخ قضاة الاندلس ، المصدر السابق ، ص ٨٠ .
- ٥٨- القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ١١٨ ؛ النباهي ، تاريخ قضاة الاندلس ، المصدر السابق ، ص ٨٠ .